النّعت وبناء الصّورة الشّعرية

د. أحمد عيد محمود السيد ، جامعة المنيا، مصر.

ملخّص

النعت أحد أهم موسعات الجملة العربية على المستوى التركيبي، وعلى المستوى الدلالي يسهم بشكل كبير في بناء الصورة الشعرية، من خلال تعدده وتنوع وروده، طبقا لما يسمح به النظام اللغوي فتمتد الجملة وتطول، وبطولها المفرط تتعقد الصورة الشعرية، وتنحو إلي الرمز، والذي يمكن تفسيره وإضاءة النص من خلال هذا التفسير .

يحاول البحث رصد هذا الدور التركيبي الدلالي للنعت من خلال التطبيق على بعض القصائد الشعرية من ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، وهو شاعر مخضرم مشهور، له طابعه الخاص، ولشعره سمات أسلوبية واضحة ، إضافة إلي ذلك وضوح الظاهرة موضع الدراسة في القصائد المدروسة من شعره بشكل خاص وفي شعره- في الغالب- بشكل عام.

تقوم الصورة الشعرية في الغالب على جملة أساسية تمتد من خلال موسعات الجملة، والنعت أهمها ، فتستغرق تلك الجملة خمسة أبيات- كما في القصيدة الثالثة من الديوان- وتتداخل جمل النعت، في حالة المنعوت النكرة، حيث ينعت أحد عناصر جملة النعت بنعت جملة أيضا، فيزداد طول الجملة وتتعقد الصورة الشعرية مكونة الصورة الشعرية الكبرى في القصيدة.

وقد تتداخل ثلاث صور شعرية معقدة، اعتمادا على جملة أصلية تمتد لتستغرق أربعة عشر بيتاً، وسعها النعت في الغالب- كما في القصيدة الثالثة والعشرين من هذا الديوان، وتداخل تلك الصور وتعقدها أتاح للبحث محاولة تفسير ما ترمز إليه تلك الصور والرابط الدلالي بينها جميعا.

The adjective and the poetic pictorial structure

Abstract

The adjective is one the most important element which widens the Arabic sentence according to the structur al standard. But according to the meaningful standard, it enormously contributes in the poeticpictorial structure through its variety in the sentences. According to the allowance in the linguistic system.

The sentence can expand and stretch because of its exceeded lengh, the poetic pictorial becomes complicated and trans feres in to a simple which can be interpretted and illus trate the contecxt trough this inter pretation this research tries to inform and collect the meaningful structural role for the adjective through the tast or the application on some poems in the Diwan Hassan Ibn Thabet Al Ansary, he was a very famous poet who was well-known for his special style.
In his poetry, he has clear stylish features.

In addition to this the clearness of the phenomena which applied to the study in

the poems from his poetry specially and in his poetry in general.

The poetic pictorial is based on a main sentence which stretches through the sentences widens and the adjective is one of them. That sentence stretches in about five lines like in the third poems in the Diwan. The adjectives sentences interfer in the case of indifinate subject in which one of the element is describe in the adjective's sentence by an adjective's sentences too . so the sentence expands and the poetic pictorial becomes complex which contains the whole poetic pictorial in the poem.

Three complex poetic pictorial may interfere which are depending on the original sentence which extend to cover about fourteen lines the adjective widened it in general as in the twenty third poem in this Diwan.

The interferrance and the complexity of this pictorial gives the research achance to interpret which this pictorial refers to and the meaningful relation among them.

يقوم النّعت بدور بارز في توسيع الجملة على المستوى التركيبي، وبناء الصورة الشعرية على المستوى الدلالي، فتطول الجملة الأصلية وتتعقد الصورة الشعرية من خلال تعدد النعت بتكراره في إحدى صوره مفرداً أو جملة أو شبه جملة- وتنوعه باختلاط الصور السابقة وتداخلها. ويرتبط التنوع بالمنعوت النكرة فقط وهو ما يسمح به النظام اللغوى.

تخير البحث بعض القصائد الطوال من ديوان حسان بن ثابت الأنصاريّ ليتمكن من دراسة النعت ودوره في بناء الصورة الشعرية فيها . من هذه القصائد القصيدة الأولى من الديوان، وتحتوى على عدة صور شعرية، تقوم الصورة منها على جملة واحدة- في الغالب- تطول من خلال التقييد بالنعت يقول عن طيف محبوبته "شعثاء" :

فَدَعْ هَذا ولكنْ مَنْ لِطَيفٍ ❖ يُؤَرِّقُنِي إذا ذَهَبَ العِشاءُ [1]
لِشَعْثَاءَ التي قد تَيَّمَتْـــهُ ❖ فليس لقلبه منها شفـــاءُ

البيتان .في الأصل . جملة واحدة "مَنْ لطيفٍ" طالت هذه الجملة من خلال تقييد أحد عنصريها "طيف" بنعتين متنوعين، الأول: جملة شرطية "يؤرقني إذاذهب العشاء"،والثاني:شبه جملة"لشعثاء"،وتستمرالجملةفى الاتساع بنعت"شعثاء"بالموصول "التي قد تيمته"، ثم ينتقل حسان إلى صورة أخرى وهي صورة رضاب "شعثاء":

كَأَنَّ خَبِيئَةً مِنْ بَيـتِ رَأْسٍ ❖ يكونُ مِزَاجَها عسلٌ ومـاءُ [2]
على أنيابِها أو طَعْمُ غـضٍّ ❖ من التُّفَّاحِ هَصَّرَهُ اجْتِنَاءُ

الجملة الأصلية في الصورة "كأن خبيئة على أنيابها"، طالت الجملة بتقييد اسم كأن "خبيئة" بشبه الجملة" "من بيت رأس" [3] ثم بالجملة الاسمية المصدرة بـ"يكون" وهي "يكون مزاجها عسل وماء" [4] وتطول الجملة بالعطف "أو طعم غضٍ" ويقيد "غض" بنعتين الأول شبه الجملة "من التفاح" والثاني جملة فعلية ذات فعل ماضي "هصره اجتناء" ويلاحظ في هذه الصورة توازٍ في تنوع النعت، نعتت خبيئة بشبه الجملة ثم بالجملة، ونعت "غض" بشبه الجملة ثم بالجملة أيضا.

قصيدة أخرى من قصائد الديوان، وهي القصيدة الثالثة منه، تحتوى على جملتين طويلتين تتسع كل منهما مكونة صورة شعرية، وأولى هاتين الجملتين وردت في بداية القصيدة يصور فيها طيف محبوبته، وتمتد هذه الجملة فتتعقد الصورة نتيجة لتداخل النعوت الجملة، وتستغرق تلك الجملة خمسة أبيات يقول :

تَبَلَتْ فُؤادَك في المنامِ خَرِيدةٌ ❖ تَشْفِى الضجيعَ ببارِدٍ بَسَّـــامِ [5]
كالمِسْكِ تَخْلِطُهُ بماءِ سَحَابةٍ ❖ أوْ عَاتِقٍ كَـــدَمِ الذَّبيحِ مُـدَامِ
نُفُجُ الحَقِيبةِ بُوصُها مُتَنَضِّدٌ ❖ بَلْهَاءُ غيرُ وَشِيكَةِ الأَقْسَـــام
بُنِيَتْ على قَطَنٍ أَجَـــمَّ كأنَّه ❖ فضلاً إذا قَعَدَتْ مَداكُ رُخامِ
وَتَكَادُ تَكْسَلُ أنْ تَجِيء فِرَاشَهَا ❖ فِي لِينِ خَرْعَبَةٍ وَحُسْـــنِ قَـوَامِ

بنيت الصورة الشعرية على الجملة "تبلت فؤادك في المنام خريدة" من خلال اتساعها بالنعوت لأحد عناصرها "خريدة"- وهي تشغل وظيفة الفاعل المؤخر- وتأخير هذه الكلمة مهد لتقييدها بالنعوت المتنوعة- وتنكيرها يسمح بهذا التنوع- وأول هذه النعوت الجملة الفعلية "تشفي الضجيع ببارد" ويقصد بالبارد رضابها، فالتقدير: برضابٍ باردٍ بسامٍ، وقيد رضاب- المنعوت المحذوف الذي دل عليه السياق- بنعتين مفردين "بارد- بسام" ثم أتبعهما بشبه الجملة "كالمسك" وقيد هذا المسك بجملة الحال "تخلطه بماء سحابة" وتستمر الجملة في الطول بالعطف على هذا الماء "أوعاتق" أى: خمر عاتق ونعت "خمر" بثلاثة نعوت "عاتق- كدم الذبيح- مدام" هذا التداخل بين النعوت- الحادث بتقييد "رضاب بارد" وهو عنصر في جملة النعت "تشفى الضجيع ببارد "بشبه الجملة" كالمسك ثم

تقييد المسك بجملة الحال، التي تتسع بالعطف على أحد عناصرها بعنصر يقيد بنعتين مفردين وثالث شبه جملة.

هذا التداخل يزيد من طول الجملة الأصلية وتعقيد الصورة، وتستمر هذه الجملة الأصلية في الاتساع بالعودة إلى نعت "خريدة"- (وهي الحسناء الناعمة) [6] بعدة نعوت، الأول: نعت مفرد "نفج الحقيبة" [7] والثاني: جملة اسمية "بوصها متنضد" [8]، ثم بنعتين مفردين "بلهاء- غير وشيكة الأقسام" [9]

ويختتم هذه النعوت بجملة فعلية "بنيت على قطن" [10] وتتسع جملة النعت الأخيرة بتقييد أحد عناصرها "قطن" بنعتين الاولى مفرد "أجم" الثاني جملة اسمية "كأنه فضلا إذا قعدت مداك رخام" [11]، وتداخل النعوت الواضح في الأبيات يعقد الصورة الشعرية، وكلما ازداد هذا التداخل زاد طول الجملة وزاد تعقد الصورة، وتكون هذه الصورة- في الغالب- هي الصورة الشعرية الكبرى في القصيدة كما يرى أحد الأساتذة المحدثين [12] ، والصورة السابقة تؤكد هذا الرأى، فقد تداخلت جملتان نعتيتان "بنيت على قطن" و "كأنه فضلا إذا قعدت مداك رخام" فزاد طول الجملة وتعقد الصورة.

تكثيف النعت في رسم صورة هذه المحبوبة- بالاضافة لإطالته للجملة- يجعل منها رمزاً من الرموز الشعرية، وهو ما تؤكده صورة تلك المحبوبة في قصائد أخرى ، هو لا يقصد امرأة بعينها "نفج الحقيبة"- "بوصها متنضد "وانما هي رمز للحياة بكل صورها ومفاتنها، إلا أنَّها رمز للموت والفناء أيضا، ثنائية الحياة والفناء من أكثر الأفكار إلحاحًا على عقل الشاعر القديم ووجدانه، الحياة لا تظهر إلا مقترنة بالفناء، وهو إحساس أليم على نفسه، تمثل هذه المحبوبة- بجسدها المثير- قمة تلك الحياة كما أنها تمثل الفناء، فقد رحلت والحياة نفسها رحلة، ولم يعد له إلا الذكرى :

أمَّا النَّهَارُ فَمَا أُفَتِّرُ ذِكْرَها ❖ والليلُ تُوزِعُني بِها أَحْلامي (13)

ربط الشاعر بين الخمر وثغر المحبوبة- في هذه القصيدة وفي السابقة- لأنها أهم وسائله لنسيان هذا الهم، هم الحياة والموت، إن تجربة الشاعر تجربة حية أو فنية إلا أنها أصبحت ماضياً يتذكره، الحياة بصورتها الجميلة أصبحت ماضياً منقضياً لا يعود (إن الحب الذي يصوره الشاعر الجاهلي هو مجرد وسيلة تذكى الإحساس بمشكلة الذاكرة نفسها حينما يتذكر المرء الأحداث الهامة يشعر أنه حي وأنه ميت عقله نشيط يستطيع أن يعيد الماضي وأن يشكله من جديد ... وكلما مضى من تجارب المرء قدر عاد فوقف ليبكيه أو ليبكى ما ضاع من الحياة أو العمر) [14] تعود هذه الفكرة لتلح عليه مرة أخرى في حواره مع عاذلته، وهي المحبوبة بعينها بعد أن ذكر مفاتنها ورحيلها يقول:-

يَا مَنْ لِعَاذِلَةٍ تَلُومُ سَفَاهَـــةً ❖ وَلَقَد عَصَيْتُ إلى الهَوى لُوَّامِي [15]
بَكَرتْ عَلَيَّ بسُحْرَةٍ بعد الكَرَى ❖ وَتَقَارُبٍ مِن حَـــــادِثِ الأَيَّام
زَعَمتْ بأنَّ المرءَ يَكْرُبُ يَوْمَـهُ ❖ عَدَمٌ لِمُعْتَكِرٍ مِن الأَصْـــــرَامِ

تلومه محبوبته زاعمة- في البيت الأخير- أن الرجل (يقرب أجله الفقر) [16]فدعته للإمساك والبخل، مادام العطاء والبذل يرتبطان بالفقر والموت، إلا أنه يرى سفه رأيها، فالكرم والبذل هما الحياة- كما يراها الشاعر- والبخل هو الموت بعينه (إن صورة الكرم في الشعر هي صورة البهجة بالتبديد، وحماية حياة الآخرين في الشعر تلتبس بنوع من تدمير الذات على الأقل ... عطاء الكريم ...يلتبس بنفس الباعث الذي يسوق الرجل إلى تعاطي الخمر والإقبال على المرأة، ضرب من تحدى الشعور المستمر بأن الإنسان حيوان فانٍ .) [17]

الإمساك هو الفناء، وهذه المحبوبة العاذلة تطلب منه التمسك بالفناء دون الحياة وقد صارت محبوبته رمزاً للفناء أكثر منها رمزاً للحياة، برحلتها المحزنة من ناحية وبدعوتها للإمساك من ناحية أخرى.

استغرقت الصورة الأخرى في هذه القصيدة أربعة أبيات، وهي تقوم على جملة واحدة طالت من خلال نعت أحد عناصرها وهو فرس الحارث بن هشام، فهو محور هذه الصورة التي توضح سرعة عدوه:

تَرَكَ الأَحِبَةَ أَنْ يُقَاتِــلَ دُونَهُم ❖ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ وَلِجَـــامِ [18]
جَرْدَاءَ تَمْزَعُ فِي الغُبــَار كأَنَّها ❖ سِرْحَانُ غَابٍ فِي ظلال غَمَامِ
تَذَرُ الْعناجِيجَ الجِيادَ بقفـرةٍ ❖ مَرَّ الدَّمُوكِ بِمُحْصَدٍ وَرِجَامِ
مَلأَتْ به الفَرْجَينِ فَارْمَدَّتْ به ❖ وَثَوى أَحِبَّتُهُ بِشرّ مُقـــَامِ

الجملة الطويلة التي رسمت الصورة هي الجملة المعطوفة "ونجا برأس طمرة ولجام" امتدت هذه الجملة مستغرقة أربعة أبيات من خلال تقييد المنعوت المحذوف وتقديره برأس فرس طمرة، بنعتين مفردين "طمرة" [19] و "جرداء"[20] ، ويلي ذلك نعت بالجملة الفعلية "تمزع في الغبار" [21]، وقد قيد الضمير في "تمزع" بجملة الحال "كأنها سرحان غاب" ثم نعت هذا السرحان بشبه الجملة "في ظلال غمام" وتداخل جملة النعت والحال زاد من طول الجملة ثم رجع لنعت الفرس بالجملة الفعلية "تذر العناجيج الجياد " [22] التي قيد أحد عناصرها وهو منعوت محذوف تقديره: تذر الخيل العناجيج، وقيد هذا المنعوت بنعتين "العناجيج- الجياد" ويختم نعوت الفرس بالجملة الفعلية "ملأت به الفرجين" [23] أى بالجرى، وقد قصد حسان من رسم هذه الصورة المعقدة لفرس الحارث التعريض بفراره وجبنه.

القصيدة الثالثة هي القصيدة الرابعة من الديوان، وقد وردت بها جملة طويلة ترسم صورة محبوبته "شعثاء" التي وصفها بظبية وامتدت الصورة من خلال نعت هذه الظبية:

وإذْ هيَ حَوْرَاءُ المَدَامِـــعِ تَرْتَعِي ❖ بِمُنْدَفَعِ الوَادِي أَرَاكاً مُنَظَّمَـــا [24]
أَقَامَتْ به بالصَّيفِ حتَّى بَدا لَهَا ❖ نَشَاصٌ إذا هَبَّتْ له الرِّيحُ أَرْزَمَا

الجملة الأساسية "واذ هي ظبية" الخبر- وهو المنعوت- محذوف دل عليه النعت "حوراء المدامع" وقيد هذا الخبر بعدة نعوت أولها السابق "حوراء المدامع" [25] ثم أتبع هذا النعت بنعتين الأول جملة فعلية "ترتعي بمندفع الوادي أراكاً، ثم نعت أحد عناصرها "أراكاً" بنعت "منظما" والثاني جملة ذات فعل ماض "أقامت به بالصيف حتى بدا لها نشاصٌ" قيد أحد عناصرها "نشاص"[26] بالجملة الشرطية الواقعة نعتا "اذا هبت له الريح أرزما ". [27] والتداخل بين جملتي النعت "أقامت به بالصيف" "إذا هبت له الريح أرزما" عقد الصورة وأطال الجملة.

القصيدة الرابعة هي القصيدة الخامسة في الديوان، وهي مفتتحة بصورة المحبوبة وتلك الصورة بنيت على جملة واحدة طويلة:

يَا لَقَوْمِي هَلْ يَقْتُلُ المرءَ مِثْلِي ❖ وَاهِنُ البَطْشِ والعظامِ سَؤُومُ [28]
هَمُّها العِطْرُ والفِراشُ ويَعْلُو ❖ هَا لُجَيْنٌ وَلُؤْلُؤٌ مَنْظُـــــومُ
لو يَدِبُّ الحَولِيُّ مِنْ وَلَـدِ الذَّ ❖ رِعَلَيْهَا لأَنْدَبَتْهَا الكُلُـــومُ
لَمْ تَفُقْهَا شَمْسُ النَّهارِ بشيءٍ ❖ غيرَ أَنَّ الشَبَابَ ليسَ يَدُومُ

طالت الجملة الأساسية مكونة الصورة الشعرية السابقة وهي الصورة الكبرى في القصيدة ،الجملة الفعلية "يقتل المرء مثلي واهن البطش" وقد وسعت من خلال نعت الفاعل المحذوف- دل عليه النعت واهن البطش والتقدير حبيب واهن البطش- بعدة نعوت متنوعة لكون المنعوت نكرة، وتأخير المنعوت سمح باتساع الجملة بنعتين مفردين" واهن البطش- سؤوم" [29] اتبعا بثلاث جمل نعت، الأولى جملة اسمية "همها العطر" وقد عطفت عليها جملة "يعلوها لجين ولؤلؤ" والتي قيد أحد عناصرها "لؤلؤ" بالنعت "منظوم"، الثانية جملة شرطية "لويدب الحولي من ولد الذر عليها لأندبتها الكلوم" [30]، الثالثة جملة فعلية ذات فعل مضارع" لم تفقها شمس النهار بشيء". صور حسان- من خلال استخدام النعوت .رقة محبوبته وضعفها وترفها (واهن البطش والعظام- سؤوم- همها العطر- لويدب الحولى .. لم تفقها شمس النهار ..)، إنها رقيقة مترفة لكنها أصابت قلبه بالسقم، يقول في بيت

سابق عن طيفها :

مِنْ حَبيبٍ أَصَابَ قلبَك مِنْه ❖ سَقَمٌ فهـــو دَاخِلٌ مَكْتُومُ [31]

إن هذه المحبوبة صاحبة المفاتن، التي لا تبادل الشاعر حباً بحبٍ، وكانت رمزاً للفناء في صور سابقة، وما لهذا الفناء من وقع أليم على نفسه- قد شملها الفناء هي أيضا فشفي نفس الشاعر، وذلك يتضح من جملة النعت "لم تفقها شمس النهار"، إنها مشرقة كالشمس، لكن هذا الإشراق لا يدوم" غير أن الشباب ليس يدوم" إن الشباب للمرأة هو الحياة، وذهابه يعنى الموت والفناء.

القصيدة الخامسة هي القصيدة السادسة في الديوان، وتحتوى على صورتين معقدتين الأولى جملة طويلة اتسعت بتقييد أحد عناصرها- الناقة- بالنعوت المتنوعة، يقول:-

وَإنّي إذا مَا الهَمُّ ضَـــافَ قَرَيْتُهُ ❖ زَمَاعًا ومِرْقَـــــــــالَ العَشِيَّاتِ عَيْهَلا [32]
مُلَمْلَمَـــةٌ خَطَّارَةٌ لَـــوْ حَمَلْتها ❖ على السَّيْفِ لَمْ تَعْدِلْ عن السَّيْفِ مَعْدِلا
إذَا انْبَعَثَتْ مِنْ مَبْرَكٍ غَادَرَتْ به ❖ تَوَائمَ أمْثَـــــــــالَ الزَبَائبِ ذُبَّلا
فإنْ بَرَكَتْ خَـــوَّتْ على ثَفِنَاتِها ❖ كأنَّ على حَيْزُومِهَا حَـــــــــرْفَ أَعْبلا
مُرَوَّعَةٌ لَوْ خَلْفَهَا صَـــرَّ جُنْدُبٌ ❖ رأيْتَ لها مِنْ رَوْعَةِ القلـــــــــبِ أَفْكَلا

امتدت الجملة الواقعة جوابا للشرط "قريته زماعا ومرقال العشيات" من خلال تقييد المعطوف على أحد عناصرها "مرقال" وهو نعت- في الأصل- قام مقام المنعوت المحذوف "ناقة" والتقدير: قريته زماعاً وناقة مرقال، وتأخير المنعوت أتاح امتداد بناء الجملة بتقييد هذا العنصر المتأخر، كما أن تنكير العنصر نفسه "ناقة" أتاح تنوع النعوت- طبقا للنظام اللغوى- وقد قيدت هذه الناقة بأربعة نعوت مفردة "مرقال العشيات- عيهلا- ململمة- خطارة" [33] والنعتان الأخيران مقطوعان للمدح- وقد وردا في طبعة الديوان بتحقيق د. سيد حنفي حسنين على الاتباع "ململمة- خطارةً" [34] وتستمر الجملة في الاتساع بتقييد العنصر نفسه بالنعتين "لو حملتها على السيف لم تعدل عن السيف معدلا" [35] وهي جملة شرطية، و"إذا انبعث من مبرك غادرت به توائم أمثال الزبائب ذبلا" [36] وهي جملة شرطية أيضا، وقد قيد أحد عناصرها "توائم" بنعتين مفردين "أمثال الزبائب- ذبلا"، وتستمر الجملة في الاتساع بالعطف على جملة النعت السابقة "فان بركت خوت على ثفناتها، ثم يعود لنعت الناقة- مرة أخرى- بالنعت المفرد المقطوع "مروعة" وهو نعت متبع في رواية الشيخ البرقوقي "مروعةً" [37]

تحتاج كلمة "مروعة"- التي وصفت بها الناقة- إلى وقفة عند معناها المعجمي ودور السياق في توجيه هذا المعنى إلى الرمز. في تعليقات الديوان "مروعة" (يريد أنها شهمة كأنها مُفزَّعة من شهومتها) [38]، ويذكر البرقوقي المعنى نفسه (ناقة مروعة وروعاء حديدة الفؤاد شهمة ذكية كأن بها فزعاً من ذكائها وخفة روحها)[39]، ولكن صاحب لسان العرب يذكر عدة معان لهذه الكلمة منها أن "المروع" (الملهم كأن الامر يلقي في روعه) [40]، إن ناقته ملهمة، يلقى في روعها الأمر، ولكن أى أمر؟ .الناقة أكثر رموز الشاعر القديم تعقيدا وتداخلاً فهي ليست حيوانا يصفه الشاعر وصفا حسيا بسيطا وانما هي رمز له موروثه الأسطوري الكامن في اللاشعور الجمعي العربي، ولعل هذا الإلهام الذى اتصفت به ناقة حسان من آثار هذا الموروث ، فهى تعرف ما يجهله الإنسان من حقائق فيقف أمامها موقف المحب الوجل، ليستقى ما عندها من معارف، إنها الأم التي يلقى في أحضانها بهمومه وأحزانه، يقول في أول الصورة :

وَإنّي إذا مَا الهَمُّ ضَافَ قَرَيْتُه ❖ زَمَاعاً وَمَرْقَالَ العَشِيَّاتِ عَيْهَلا [41]

يقول أحد الباحثين عن "رمزية الناقة" (فالناقة هي التي يتسع رحابها لهؤلاء المهمومين المجهدين فهي "الناقة الأم") [42] ، يرتحل حسان هربا من الهم متسليًا بهذه الناقة، وهي رحلة فنية، لعل المقصود بها رحلة الحياة،

المليئة بمظاهر الفناء.

إنه يتسلى بالناقة، بل يعبر بها هذه الرحلة المزعجة، فالناقة (تفسح صدرها لأبنائها المتعبين من رحلة الحياة الشاقة فتمنحهم السكينة والأمن والسلام ... وكأن هذه الناقة هي قوى الخير الكامنة في الإنسان التي تسعفه بطاقتها الهائلة عند الحاجة فتمنحه القوى الروحية الصافية لكي يعلو على متاع الدنيا .) [43]

رمز الناقة أكثر تعقيداً، فهي قد تشير إلى نفسه، جملة النعت الأخيرة "لو خلفها صر جندب" رأيت لها من روعة القلب أفكلا" جملة شرطية يشير مضمونها إلى نفس الشاعر، الأفكل (رعدة تعلو الإنسان) [44] وهي لا تصيب ناقته ولكن تصيبه هو إنها رعدة من يخاف الموت الذي قد يأتي في أى لحظة.

تشير الناقة إلى الإنسان الفاني كما تشير إلى القوى الخفية التي تعلم الغيب والمستور "الناقة رمز الانسان الفاني ورمز الدهر الباقي معاً" [45]، ولعله يقصد نفسه أيضا بجملة النعت الشرطية" لو حملتها على السيف لم تعدل عن السيف معدلاً"، فهو يقصد نفسه- لا الناقة- الجريئة التي تتحدى الموت بملاقاته والثبات له، بل إن هذا الجبل الذي يعلو صدر ناقته "كأن على حيزومها حرف أعبلا" انما هو الهم الذي يجثم على صدره هو، والذي هرب منه بالتسلي بتلك الناقة. إن وصف الناقة بالسرعة والنشاط من خلال النعوث (مرقال العشيات- عيهلا- ململمة- خطارة) يؤكد سرعة الرحلة- رحلة الحياة وانقضاء العمر. فكأن الناقة تفنى الحياة، لأن تمام الرحلة يعنى تمام النقصان، يقول د. ناصف عن الناقة (أصبحت أكثر رمز أمام الشاعر للتعبير عن هذه الحياة النامية الفانية). [46]

تحتوى القصيدة الثالثة والعشرون من الديوان على ثلاث صور شعرية متداخلة ربط بينها النعت الذي أدى دورين : توسيع الجملة الاصلية التي تشكل كل صورة والربط بين تلك الصور، يقول حسان :

جِنِّيَّةٌ أرقني طَيْفُهَـــــــا	❖	تَذْهَبُ صُبْحًـــا وتُرَى في المَنَامْ [47]
هَلْ هيَ إلاَّ ظَبْيَـــةٌ "مُطْفِلٌ"	❖	مَأْلَفُهَا السِّدرُ بِنَعْفَى بَـــــرَامْ
تُزْجِي غَزَالاً فاترًا طَرْفُـــهُ	❖	مُقَارِبَ الْخَطْوِ ضَعِيفَ البُغَامْ
كأنَّ فاها ثَغَبٌ بـــــــاردٌ	❖	في رَصَفٍ تحت ظِلال الغَمَـــامْ
شُجَّتْ بِصَهْبَاءَ لهـــا سَوْرَةٌ	❖	مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ عُتِّقَتْ في الخِتَامْ
عَتَّقَها الحانـوتُ دَهْرًا فَقَدْ	❖	مَرَّ عليها فَرْطُ عامٍ فَعَـــــامْ
نَشْرَبُهَا صِرْفًـــا وَمَمْزُوجَةً	❖	ثُمَّ نُغَنِّي فِي بُيُـــــوتِ الرُّخَامْ
تَدِبُّ في الجسمِ دَبِيباً كمـا	❖	دَبَّ دَبِيٌّ وَسْـــــطَ رِقَاقٍ هَيَامْ
كأسًا إذا ما الشَّيخُ وَالَى بِهَا	❖	خَمْسًا تَرَدَّى بـــــرداءِ الغُلامْ
مِنْ خَمْرِ بَيْسَانَ تَخَيَّرْتُهَـــا	❖	دِرْيَاقَةً تُوْشِكُ فَتْرَ العِظَـــــامْ
يَسْعَى بِهَا أَحْمَرُ ذُو بُرْنُسٍ	❖	مُحْتَلَقُ الزِّفْرَى شَدِيد الحِزَامْ
أَرْوَعُ للدَّعوةِ مُسْتَعْجِـلٌ	❖	لَمْ يُثْنِهِ الشَّأْنُ خَفِيفُ الْقِيَامْ
دَعْ ذِكْرَهَا وانْمِ إلى جَسْرَةٍ	❖	جُلْذِيَّةٍ ذاتِ مَرَاحٍ عَقَـــــامْ
دِفِقَّةِ المِشْيَةِ زَيَّافـــــةٍ	❖	تَهْوِي خَنُوفًا في فُضُولِ الزِّمَامْ
تحسبُها مَجنُونَـــةً تَغْتَلِى	❖	إذا لَفَّع الآلُ رُؤوسَ الأَكَـــامْ

الأبيات السابقة- وهي خمسة عشر بيتا. في الأصل أربع جمل فقط، طالت هذه الجمل باستخدام النعت بأنواعه: الجملة الاولى "هي جنية" طالت بتقييد الخبر "جنية- يقصد المحبوبة- بجملتين فعليتين "أرقنى طيفها" و "تذهب صبحا وترى في المنام" . [48]

الجملة الأصلية الثانية وردت في البيت الثاني "هل هي إلا ظبية"، وقد طالت من خلال تقييد الخبر "ظبية" بعدة نعوت متنوعة- سمح بهذا التنوع تنكير المنعوت- الأول: نعت مفرد "مطفل" [49]، والثاني نعت جملة

اسمية"مألفها السدر"، والثالث: نعت جملة فعلية ذات فعل مضار "تزجي غزالاً" [50] وتتسع جملة النعت الأخيرة بتقييد أحد عناصرها "غزالا" بثلاثة نعوت مفردة هي "فاترًا طرفه"- وهو نعت سببي- "مقارب الخطو"، و"ضعيف البغام" [51]، وتزداد الجملة الأصلية اتساعًا "هل هي الإ ظبية" من خلال نعت رابع لـ "ظبية" وهو جملة اسمية (كأن فاها ثغب) [52]، وهذه الجملة بدورها تمتد من خلال نعت أحد عناصرها "ثغب" بنعت مفرد "بارد" ثم بشبه الجملة "في رصفٍ" [53]، ثم نعت هذا الرصف بشبه الجملة "تحت ظلال الغمام".

هذا التدرج في النعت أطال الجملة وعقد الصورة الشعرية، وتزداد الصورة تعقيداً بتداخل جملتي النعت "كأن فاها ثغب" و"شجت بصهباء" [54]، وذلك بتقييد "ثغب" بالجملة "شجت"- وفي طبعة الديوان بتحقيق د. سيد حنفي حسنين "شج" وهو أكثر دقة.ثم تزداد الجملة الأصلية طولا وتعقيدا بنعت "صهباء" بالجملة الأسمية (لها سورة) [55]، ثم بشبه الجملة (من بيت رأس)، ثم بأربع جمل فعلية "عتقت في الختام"، وعتقها الحانوت دهراً" [56]، و "نشربها صرفًا وممزوجة"، و"تدب في الجسم دبيبًا كما دب دبي وسط رقاق هيام".

والجملة الأخيرة بها عنصران مقيدان الأول: دبيبًا، وقد وسع بشبه الجملة المكون من الكاف والمصدر المؤول "كدبيب"، أما العنصر الثاني فهو منعوت محذوف تقديره (وسط رمل رقاق هيام) [57]، وقد قيد المنعوت "رمل" بنعتين مفردين "رقاق- هيام".

تداخلت ثلاث جمل نعتية في وصف هذه الظبية هي "كأن فاها ثغب" و"شجت بصهباء" و"لها سورة" مما زاد في تعقيد الصورة ، التي تعد الصورة الكبرى في القصيدة فقد امتدت شاغلة سبعة أبيات.

الجملة الثالثة مستأنفة تبدأ بقوله "كأساً بتقدير أعنى كأساً" وقد وسعت من خلال نعت هذه الكأس بخمسة نعوت، الأول جملة شرطية "إذا ما الشيخ والى بها خمسًا تردى برداء الغلام"، أما الثاني فهو جملة فعلية ذات فعل مضارع "من خمر بيان تخيرتها" [58] والثالث نعت مفرد "درياقة" [59]- ويجوز أن تكون "درياقة" حالا من الضمير في "تخيرتها".والرابع: نعت جملة فعلية ذات فعل مضارع "يسعى بها أحمر" [60] وتتسع تلك الجملة بتقييد أحد عناصرها، وهو محذوف دل عليه النعت والتقدير (غلام أحمر) ويتلو هذا النعت خمسة نعوت مفردة (ذو برنس- محتلق الذفرى- شديد الحزام- أروع للدعوى- مستعجل) [61]، ويتلو هذه النعوت نعت جملة فعلية "لم يثنه الشأن" وتختم هذه النعوت بالنعت المفرد، خفيف القيام.

الجملة الرابعة في هذه الصورة جملة معطوفة "دع ذكرها وانمِ إلى جسرة" وقد اتسعت من خلال تقييد المنعوت المحذوف والتقدير"وانم إلى ناقة جسرة" ويلى هذا النعت خمسة نعوت مفردة (جلذية- ذات مراح- عقام- دفقة المشية- زيافة) [62]، ويتلوها ثلاث جمل نعتية (تهوى خنوفا في فضول الزمام) [63] و"تحسبها مجنونة" و"تغتلى إذا لفع الآل رؤوس الأكام" [64]، وهي شرطية.

إن هذه الصور الشعرية الثلاثة والتي تبدو متفرقة "صورة المحبوبة- صورة الخمر- الناقة" هو وجوه ثلاثة لشيء واحد، صور ثلاثة للحياة كما يراها الشاعر، تلك الحياة الفانية.

إن فكرة البقاء والفناء لا تفارق الشاعر، ربط الشاعر بين المحبوبة والخمر- من خلال تشبيه رضابها بالخمر أو الخمر الممزوجة – هذه المحبوبة قد رحلت وذكرها تعبير عن انقضاء فترة من العمر غالية لن تعود، وهذا الإحساس الحاد بالفناء يستدعى ذكر الخمر، ذلك الترياق الذي يذهب بهمومه وهي خمر تخيرها بعناية اعتزازاً بنفسه، وهذه الخمر تشكل العمر فتعيد إليه شبابه المنصرم:

كَأسًا إذا مَا الشَّيْخُ والَى بِهَا ❖ خمسًا تَرَدَّى برداءِ الغلامْ

الخمر هي السبيل الوحيدة لهزيمة هذا الفناء، فشارب الخمر (يريد أن يحقق أحلاما وأفكاراً ورؤى لا

يستطيع أن يتناولها بغير هذا الطريق) .[65]والتكثيف في استخدام النعت لرسم صورة الخمر يؤكد هذا المعنى، وقد انعكس القلق الذي يستشعره حسان على صفات الفتى الذي يسعى بالخمر (أروع للدعوة- مستعجل- لم يثنه الشأن- خفيف القيام).

ينتقل حسان إلى الناقة التي هي صورة أخرى للحياة، الحياة القاسية (جسرة- جلذية)- التي تمر سريعاً- (ذات مراح- دفقة المشية- تحسبها مجنونة) ، وتنتهى بالفناء – (عقام)- فالعقم أحد صور الفناء الرابط بين الصور الثلاثة وهو رابط فني يلفت إليه تكثيف النعوت وتنوعه في رسم الصور.

هوامش البحث :

1. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري: تحقيق د. وليد عرفات، ج1 صـ17 قصيدة 1 ، البيتان 5:4 دار صادر، بيروت، ط1، 1974م.
2. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري: ج1، صـ17، قصيدة 1، البيتـــــــــــــــــان 7:6.
3. الخبيئة:- "الخمر المصونة المضنون بها"، الديوان2/6، بيت رأس"، موضع في الأردن" ينظر:
البرقوقي: الشيخ عبد الرحمن، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، صـ59، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983م.
4. " قد مزجت بعسل وماء"، شرح ديوان حسان للبرقوقي، صـ59.
5. الديوان، ج1، صـ29، قصيدة 3 الأبيـــــــــــــات1:5.
6. شرح ديوان حســـــــــــــــــــان، صـ318.
7. امرأة نفج الحقيبة إذا كانت ضخمــة الأرداف والمأكم"، ينظر:
ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة "نفج"، دار صـــــــادر، بيروت، ط3، 1994م.
8. البوص الردف وهو الكفل ومتنضد علا بعضه بعضاً، شرح ديـــــــــــــــــوان حسان ص 418.
9. "البلهاء العفيفة الغفول عن الشر .. غير وشيكة الأقسام أي غير سريعة اليمين" شرح ديوان حسان، ص : 418
10. القطن ما بين الوركين وأجم ممتلئ باللحم غائب العظام" شرح ديـــــــوان حسان، صـ418.
11. المداك الحجر الذي يسحق عليه الطيب أو هو الرخام" وفضلا" أى إذا قعدت متفضلة أى في ثوب واحد، شبه مأكمها في اكتنازها وملاستها بالرخام، شرح ديوان حســــــــــــــــــــان، صـ418.
12. د. محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، صـ298، دار الشروق بمصر، ط1، 1996م.
13. الديوان1/ 29 ، بيت 6، قصيـــــــــــــــــــــــــدة 3.
14. د. مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، صـ237، دار الأندلس ببيروت، ط3، 1983م.
15. الديوان1/ 29، الأبيات 8: 10، قصيدة 3، "المعتكر المال الكثير" الديـــــــوان 2/21.
16. الديوان 2/21.
17. د. مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، صـ294: 295.
18. الديوان: 1/29، الأبيات 12: 15، قصيـــــــــــدة 3.
19. الطمرة: "الفرس كثير الجري"، شرح ديوان حســــــــان للبرقوقي، صـ419.
20. "الأجرد الذي يسبق الخيل وينجرد عنها لسرعته"، لســــــان العرب، "جرد".
21. "مزع البعير في عدوه يمزع مزعاً، أسرع في عدوه"، لســــــان العرب. "مزع".
22. العناجيج: جمع عنجوج وهو "النجيب من الخيل"، شرح ديوان حسان صـ419.
23. الفرجان "ما بين يديها وما بين رجليها"، شرح ديـــــــــوان حسان، صـ419.
24. الديوان 1/34-، البيتان 5: 6 ، قصيـــــــــــــــــــدة 4.
25. الحور "أن يكون البياض محدقاً بالسواد كله"، لسان العرب، "حور".
26. "السحاب ينشأ في عرض السماء"، شرح ديوان حســــــان، صـ423.

27. إرزامه "إرعاده"، شرح ديوان حسان، ص423.
28. الديوان1-/ 40، الأبيات 3: 6، قصيدة 5.
29. "ضعيف العظام – ملول"، شرح ديوان حسان، ص432.
30. الذَّر "صغار النمل" والشاعر لم يرد بالحولي "ما أتى عليه حول، وإنما جعله في صغره كالحولي من ولد الحافر والخف"، والكلوم "الجراحات"، شرح ديوان حسان، ص433.
31. الديوان40/1-، بيت 2، قصيدة 5.
32. الديوان- 1/44، الأبيات 6: 10، قصيدة 6.
33. "المرقلات"، هي الأبل المسرعة، لسان العرب، "رقل" العيهل"النجيبة الشديدة"، وقيل العيهل الذكر من الإبل ... وقيل العيهل الطويلة" ولعله يقصد تذكير هذه الناقة ليبين قوتها وتحملها المشاق، لسان العرب، "عهل".
- ناقة ململمة "هي المدارة الغليظة الكثيرة اللحم المعتدلة الخلق"، لسان العرب- "لمم".
- ناقة خطارة "تخطر بذنبها في السير نشاطاً"، لسان العرب، "خطر".
34. ديوان حسان بن ثابت، بتحقيق د. سيد حنفي حسنين، ص272، دار المعارف بمصر، ط1، 1973م.
35. يقصد أنها ماضية جريئة لو حملت على السيف لم تهبه ولم تعدل عنه" شرح ديوان حسان، ص405.
36. "يريد أن بعرها كالذبيب في صغره لطول سفرها وقلة رعيها"، الديوان 2/50
37. شرح ديوان حسان للبرقوقي، ص406.
38. الديوان – 2/50.
39. شرح ديوان حسان، ص406.
40. لسان العرب، مادة "روع".
41. الديوان- 1/44، بيت 6 ، قصيدة 6.
42. د. محمد حماسة عبد اللطيف، اللغة وبناء الشعر، ص109، دار الصفوة، ط1، 1992م.
43. المرجع السابق، ص109: 110.
44. لسان العرب، "فكل".
45. د. مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، ص249.
46. د. مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، ص94: 95، دار الأندلس، بيروت، د.ت.
47. الديوان106/1-: 107، الأبيات 4: 18 قصيدة 23
48. يريد "أن طيفها الذي يلم به في نومه وأنه محروم منها في اليقظة"، شرح ديوان حسان، ص436.
49. مطفل: "معها طفل"، شرح ديوان حسان، ص436.
50. تزجى: "تسوق"، المرجع السابق، ص436.
51. بغام الظبية"أرخم ما يكون من صوتها"، نفسه، ص437.
52. الثغب "الماء يغدره السيل" ينظر الديون 2/103.
53. الرصف "الحجارة المتراصفة المتدانية"، شرح الديوان للبرقوقي ص437.
54. شجت "مزجت"، والصهباء "الخمر"، شرح الديوان، ص437.
55. السورة "الحدة"، بيت رأس "قرية بالأردن"، المرجع السابق، ص437.
56. الحانوت "الخمار أى بائع الخمر"، نفسه، ص437.
57. "رملاً مستوياً لينا"، نفسه، ص437.
58. بيسان "موضع بنواحي الشام، نفسه، ص437.
59. دریاقة أو "ترياقة"، لأنها تذهب بالهم، نفسه ص437 .
60. أحمر "يريد غير عربي أي غلام من الأعاجم"، نفسه، ص437.
61. البرنس"قلنسوة طويلة"، ينظر الديوان 2/103.

- محتلق الذفرى، الذفرى (قيل هو العظـــــــم الشاخص خلف الأذن .. وقـــال شمر الذفرى عظم في أعلى العنق من الإنسان عن يمين النقرة وشمالها"، لســـــان العرب، "ذفر".
- ورواية د. حسنين والشيخ البرقوقي "مختلق الذفـــــــرى" من الخلق (ضرب من الطيـــب .. وذلك لذفره أي نتنه لأنه أعجمي)، شرح ديوان حســـــــــــــــــان للبرقوقي، صـ437.
- أروع للدعوة أى أنه حاد نشيط لا يدعى حتى يلبي، نفســـــــــه، صـ438.

62. جسرة "الضخمة الطويلة"- جلذية "القوية الشديـــــــد الصلبة" - المراح "النشـــاط"- عقام "لاتلد"- دفقة المشية "الواسعة الخطوة"- زيافة "مختالـــــــــــة متبخترة"، نفسه، صـ438.
63. الخنوف "التي تميل بيديها في أحد شقيها من النشـــاط"، نفسه، صـ438.
64. الاغتلاء "اغتلت الدابة أى ارتفعت فجاوزت حسن السير، نفسه صـ438.
65. د. مصطفى ناصف، دراسة الأدب العـــــــــــــربي، صـ290: 291.